

جناية تكراء ، ألم تحول إيطاليا المدارس إلى ثكنات عسكرية يحرم فيها النشء من أشياء في الحياة كثيرة ، ويساق سوقاً إلى نظام تمسقى مرذول فرضته سياسة خاصة قوامها الوطنية المنصبة التي لا يضيرها احتراق بعض العالم مادام في ذلك خير لها ؟

وبعد فتلك هي الجماعة ، وهذا هو الفرد كما تتصورهما الديمقراطية الحديثة ، جماعة مرنة متجددة ، وفرد حر خادم مطيع ثم تقدم يدفع بهما مما نحو « الأحسن » قوامه الحرية والنية الفاضلة ... ولما كانت التربية هي الوسيلة الوحيدة الفعالة المجدبة « بخلق » هذه الجماعة وذاك الفرد ، فإنها يجب أن تكون بحيث تستطيع خلقهما خلقاً صحيحاً يبقى الإنسانية آفات الرجعية والجود ، ويوفر عليها حقارات أولئك الذين يسودون صفحات التاريخ . ومعنى هذا أن تكون المدرسة مجتمعاً صغيراً تتوافر فيه جميع الأسباب التي تحجر العقول ، وتطهر النفوس ، وتقرس التعاون والإيثار ، وتمهد للمجتمع الفاضل المنشود ... ويتطلب ذلك بالطبع اتباع طريقة في التدريس خاصة ، والعناية بدراسة معينة ، أو معاملة الطلبة على أساس ديمقراطي مرسوم ؛ ولست تطمع من غير شك في أن أمر معك بكل التفاصيل . وحسبك أن تعلم أن رياضة القلبية والتمصب والأمانة والتنافس ، لا تؤدي بنا إلى شيء من هذا كله ، وأن حشو العقول لا يجررها ولكنه يشلها ويبلدها ، وأن الاهتمام بالحروب والاطناب في سير أبطالها يبرر ما فيها من نهب وسفك وهدم وتدمير لدى الناشئ الساذج البريء ، وأن الدروس الإلقائية التي لا تطبق فيها ولا تناون لا تعمل أكثر من تكوين أفراد « لأنفسهم » قبل أن يكونوا لغيرهم ، وأن إعطاء كل شيء للطلاب وتوفير مجهود البحث والاطلاع عليه يجعله اتكالياً عديم الثقة بنفسه والاعتماد عليها . وأن ... وأن ... وأن ... مما قلت وما سأقول ، وما تستطيع أن تدركه أنت دون ذكره أو الإشارة إليه كل ذلك لا يخلق الجماعة الديمقراطية المرنة المتجددة ، ولا يتمخض إلا عن عقول العسافير ، وإلا عن نفوس يملكها الركود والجمود ، وعن طوائف العصبية والانخزال ، ونزعات الرجعية والأمانية والشهوة والجمود ... وما أنت ذا ترى العالم يمجده سياسة الحروب ويدعو إليها ويمجد وأسقاء من الشعوب جنوداً مثلهم الأعلى الإسكندر وهانيبال

اجتماعي هو : « هل يجعل قدرة الفرد حرة في زيادة الخير العام ؟ وهل يسمح بمساواة الجميع في فرصة إظهار الكفايات ؟ » بل إن (ديوى) ليقف عند كل نظام سياسي أو غير سياسي ليرى أي دوافع يثيرها ؟ وأي أثره على من يتفدون ؟ أهو يجرر القوى ؟ وإلى أي حد ؟ وللجميع أو للأقلية ؟ وهل تسير القوى التي يجررها في طريق معقول ؟ وإذا كان النظام نظام تعليم نراه يسأل « هل يرهف الحواس ويدرب العقول ؟ وهل يثير حب المعرفة في النفوس ؟ وما هو نوع « حب المعرفة » هذا ؟ أهو عرضي يطفو أم جوهري بنور ؟^(١) ، وهكذا دواليك .. بقي أن نسأل وما « المصير » ؟ إلى ما هو أحسن كما يقول المتفائلون ؟ الواقع أن الجماعة في تطور دائم مستمر وإن كنا لا نستطيع أن نعتبر كل تطور نجاحاً . وبعد الوقوف على آراء — هوبهوس — وديوى — وفاجيه — وشو — ويود — ومل — وييري^(٢) — في ذلك الموضوع نستطيع أن نقول : إن « النجاح في الجماعة ليس أوتوماتيكياً بل يعتمد على الإرادة والقصد ، وإن المهرم في الأمة يمكن أن يمتد تماماً بمرونة العادات ، وإن مذهب « إمكان التحسين » خير من التفاؤل البحت أو التشاؤم البحت ، لأنه وحده يبعث على الأمل والرجاء ، ويمنع الغرور والياس ، وإن « حرية الفكر » هي أهم عامل في التطور نحو « الأحسن » وخصوصاً إذا اقترنت بنية بريئة فاضلة ونفوس هازمة عاقلة ، وإن « المحطات » المهود التاريخية المظلمة ليس غير حقارات أفراد ، وطوائف ، وأحزاب ، وجماعات ، أكثر مما هو حقارات أم وشعوب . وإذا فتقدم الإنسان بيده لا يبد الطبيعة الصماء ، وذلك طبعا أفضل له وأشرف . وهاهو ذا تقدم العلم يقول لنا أن ليست هناك غاية موضوعة ، ولكن هناك ما يمكن أو ما يجب أن يكون

ولكن ترى من يدفع الجماعة إلى هذا « المصير » ؟ وكيف السبيل إلى ذلك الدفع ؟ يرى « أرسطو » أن ذلك هو واجب الحكومة وسبيله التربية ، ولكن « ديوى » يخشى إشراف الحكومة لأنه يعتبرها أكثر جموداً وتلكؤاً من المجتمع ، ولذلك نراه يمتد على « الهيئات الحرة » أكثر مما يمتد عليها ؛ وهاهي ذي الحكومات كثيراً ما تخطئ في الخطط وتجنح على الديمقراطية